

المدينة في الإسلام

الشيخ طه الولي

إذا نحن تناولنا موضوع المدينة في الاسلام فلا بد لنا من الرجوع إلى القرآن الكريم لكي نرى كيف وردت كلمة المدينة في هذا الكتاب الالهي الذي يعتبر المرجع الصالح لفهم هذه الكلمة في إطارها الجغرافي، ذلك أن كلمة «المدينة» تردد ذكرها في أكثر من سورة عبر أكثر من آية. على أن تكرارها بنفس الصيغة اللفظية لا يعني أن معناها قد تكرر بالتالي هو نفسه. بل إن هذه الكلمة اختلفت دلالتها الجغرافية والاقليمية ما بين سورة وأخرى وكذلك ما بين آية وأخرى وذلك تبعاً لما تقتضيه السورة أو الآية من سياق القصد أو المعنى في نطاق الإشارة إلى واقعة بعينها أو ردها القرآن الكريم في مجال التذكير بالأُمم السابقة وما أصابها من خَيْرٍ أو ضَرٍّ بسبب صلاحها أو فسادها أو في مجال تحذير الأُمم اللاحقة التي كُنِيَ عنها كلام الله عز وجل بكلمة المدينة نفسها على أنه أياً ما كانت المناسبة التي ذكر القرآن فيها كلمة المدينة، فإن هذه الكلمة لم تخرج في أي حال عن حدود المعنى المادي واللغوي للمدينة وهو في دائرة المعنى المتعارف عليه حول هذه الكلمة، أي البلد العظيمة التي تجمع المنازل والأسواق، وجمعها: مدن أو مدائن.

كلمة «المدينة» في القرآن الكريم

وفيا يلي إحصاء للسور والآيات التي وردت فيها كلمة المدينة مع ما تأوله المفسرون في المراد من هذه الكلمة استناداً إلى أسباب نزول الآية التي تتضمنها.

ونحن عندما نقول «مع ما تأوله المفسرون في المراد من هذه الكلمة» فإننا نفعل ذلك تأسيساً بما جاء في «معجم ألفاظ القرآن الكريم» الذي أصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة وهو قوله «... وتكرر ذكر المدينة في القرآن مراداً بها في جملتها مدينة معينة، وقد نصل إلى العلم بها. وقلما نصل إلى ذلك، وإنما فيها بعض الروايات التي لا تبلغ القطع واليقين».

١- سورة التوبة، الآية ١٠١

﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ، لَا تَعْلَمُهُمْ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

المدينة هنا هي المدينة المنورة.

٢- سورة التوبة، الآية ١٢٠

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

المدينة هنا هي المدينة المنورة.

٣- سورة الأحزاب، الآية ٦٠

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

المدينة هنا هي المدينة المنورة.

٤- سورة المنافقون، الآية ٨

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

المدينة هنا هي المدينة المنورة.

٥- سورة الأعراف، الآية ١٢٣

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ. إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

المدينة هنا واحدة من إثنين، إما عاصمة فرعون، أو مدينة منف في مصر.

٦- سورة القصص، الآية ١٥

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ. فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ، فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ. قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾.

المدينة هنا، القول فيها كالآية السابقة.

٧- سورة القصص، الآية ١٨

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ. قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَقَوِيٌّ مُبِينٌ﴾.

المدينة هنا، القول فيها كالآية السابقة

٨- سورة يوسف، الآية ٣٠

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا. إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

المدينة هنا، القول فيها كالآية السابقة

٩- سورة الحجر، الآية ٦٧

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

المدينة هي، سدوم، إحدى مدائن قوم لوط في فلسطين.

١٠- سورة الكهف، الآية ١٩

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ، كَمْ لَبِثْتُمْ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ. فَأَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

المدينة هنا طرسوس في الاسلام وأقوس قبل الاسلام.

١١- سورة الكهف، الآية ٨٢

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا. فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ. وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي. ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

هذه المدينة هنا هي، فيما يقال، إنطاكية.

١٢- سورة النمل، الآية ٤٨

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

المدينة هنا هي «الحِجْر» التي كانت لثمود، قوم النبي صالح.

١٣- سورة يس، الآية ٢٠

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى. قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾.

المدينة هنا هي، فيما يقال، إنطاكية.

المدينة: عربياً وغريباً

بعد أن أحصينا عدد المرات التي وردت فيها كلمة «المدينة» في القرآن الكريم فإننا نرى أن نقدم هذه الكلمة من خلال ما دلت عليه في لغة العرب واصطلاحهم. ومقارنة هذا المدلول بما يقابله في لغة الغربيين واصطلاحهم. لا سيما وإن هؤلاء الآخرين، أو كثير منهم على الأقل، يعطون للمدينة مقاييس لغوية واصطلاحية تكاد تختلف اختلافاً جذرياً عن المقاييس التي حددتها المصادر المعجمية والتاريخية عند العرب والمسلمين.

المدينة، في لغة العرب واصطلاحهم

تُجمع المصادر العربية، في المعاجم اللغوية والمصنفات التاريخية والجغرافية على أن «المدينة» كلمة عربية، وعندما يفسرها اللغويون في معاجمهم فإنهم يدرجونها تحت مادة «مَدَنَ» وهذا ما فعله ابن منظور الأفريقي المصري في موسوعته المعجمية «لسان العرب» حيث قال:

«مَدَنَ بالمكان: أقام به، فعل مُمَات، ومنه المدينة، وهي فعيلة، تجمع على مدائن بالهمز، ومُدَّن ومُدَّن بالتخفيف والتثقيل. وفيه قول آخر أنه مفعلة من دِنْتُ أي ملكت».

ثم إن ابن منظور يفسر معنى كلمة «المدينة» فيقول: «المدينة: الحصن يبني في أصطمة الأرض، مشتق من ذلك. وكل أرض يبني بها حصن في أصطمتها فهي مدينة».

إذن، فإن كلمة «المدينة» في «لسان العرب» لها معنيان، أحدهما يعني الإقامة في مكان معين، والآخر يعني الحصن الذي يشاد في وسط أرض معينة. إذ أن الأصطمة معناها: وسط الأرض أو أحسن مكان فيها لجهة الإشراف والارتفاع. ومنه قولهم في التنويه بمكان الشخص: هو في أصطمة قومه، أي من عليتهم وأشرافهم.

وفي كتاب «تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد» لتقي الدين أبي بكر ابن زيد الجرجاني الحنبلي^(١) قال صاحب الكتاب، قال قطرب^(٢) وابن فارس^(٣) وغيرهما:

- (١) تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد - تأليف تقي الدين أبي بكر بن زيد الجرجاني المتوفى سنة ٨٨٣ هـ، تحقيق الشيخ طه الولي - طبعة أولى (سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) ص ١٥١.
- (٢) قطرب، هو: محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي، الشهير بقطرب، توفي سنة ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) نحوي، عالم بالأدب واللغة، وهو أول من وضع «المثلث» في اللغة، كان يأخذ بمذهب النظام المعتزلي.
- (٣) ابن فارس، هو: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، من أئمة اللغة والأدب، ولد سنة ٢٣٩ هـ وتوفي سنة ٣٩٥ هـ (٩٤١ - ١٠٠٤ م). وكانت وفاته بمدينة الري.

«هي - أي كلمة المدينة - مشتقة من «دان» إذا أطاع، والدِّين الطاعة فتكون الميم، على هذا، زائدة».

هذا ما فسّر به اللغويون العرب كلمة «المدينة» من الناحية اللغوية، وهو التفسير المطلق الذي عرفت به هذه الكلمة سواءً في الجاهلية أو الإسلام. وبه أخذ هؤلاء اللغويون في معاجهم. أما الجغرافيون الغربيون وكذلك اللغويون منهم فإنهم فسّروا كلمة المدينة (Ville) بقولهم: هي مجموعة من البيوت المأهولة التي تتخللها الطرقات والشوارع^(٤).

وإن بعض المحققين المعاصرين يقولون إن كلمة «المدينة» ليست عربية وإنما هي آرامية، أو سريانية. ويُرجّح أنها كانت تطلق خاصة على المكان الذي يكون فيه «القضاء» ويستدلون على ذلك من أن المقطع «دين» في هذه الكلمة يدل على العدالة، وهذا يعني أن المدينة هي المكان الذي يتوفر فيه العدل والأمن أكثر من أي مكان آخر، لكونها مقر السلطة الحاكمة. وعلى هذا، فإن كلمة: المدينة إذن إنما هي تطلق على المكان الذي يتدبره صاحب السلطة أو من يمثله^(٥).

وفي هذا المعنى يقول أدّي شير، رئيس أساقفة سمرقند الكلداني في كتابه «الألفاظ الفارسية المعربة» عند كلامه عن كلمة الدين والديانة: «وأما الدين بمعنى الحُكم والملّك، فهو مأخوذ من السرياني، ومنه أيضاً مأخوذ الأرمني، أي الحكم، واليوناني أي القصد والفكر»^(٦).

ويلوح لنا قيس من الاطمئنان إلى الربط بين كلمة «المدينة» وبين المقطع «دين» الذي يلي الميم في أولها. إذ أن كلمة «الدين» الواردة في الآية «مالك يوم

(٤) راجع القاموس الفرنسي «Larousse» وفيه:

Ville n.f. (du let. Villa, maison de campagne) Assamblage d'un grand nombre de maisons disposées par rues.

(٥) أحمد مختار العبادي، في مجلة «عالم الفكر» الكويتية، مجلد ١١ عدد (١) ابريل - مايو - يونيو - ١٩٨٠ ص ١٢٧.

(٦) الألفاظ الفارسية المعربة تأليف أدّي شير المتوفى سنة ١٩١٥.

الدين» بسورة الفاتحة في القرآن الكريم فسّرت بأنها «الجزء على الأعمال والحساب بها»^(٧)، واستشهد المفسرون على هذا التفسير بقوله تعالى في سورة النور، الآية ٢٥:

﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾.

كلمة «المدينة» عند الإسلاميين

هذا ما فسر اللغويون والجغرافيون والمؤرخون به كلمة المدينة من الناحية اللغوية، وهو تفسير مجرد ومطلق، على أن هذه الكلمة أصبحت بعد الإسلام ذات مدلول مزدوج. الأول: الاسم الجديد الذي أطلقه عليها النبي محمد ﷺ بعد هجرته إليها. وكان إسمها قبل الهجرة «يثرب». وقد ذكر كتاب السيرة أن النبي ﷺ أمر المسلمين بإهمال كلمة يثرب وأن يستعملوا كلمة «المدينة» بدلاً منها ونسبوا إليه قوله: «يقولون يثرب»، وهي «المدينة» وكان عليه الصلاة والسلام لا يذكر كلمة «يثرب» أبداً كما كان يؤكد على صحابته إجتناّب لفظ المدينة باسم يثرب. ونقل السمهوري في كتابه: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (ﷺ) أن ابن زبالة^(٨) وابن شبة^(٩) روى أن النبي ﷺ نهى عن تسمية «المدينة = يثرب» وإن البخاري ذكر في تاريخه حديث «من قال يثرب مرة فليقل المدينة عشر مرات» وروى أحمد بن حنبل^(١٠) وأبو يعلى^(١١) حديثاً جاء فيه: «من سمى المدينة يثرب،

(٧) راجع «الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله بن أحمد الانصاري القرطبي» ج ١ ص ١٤٢.

(٨) ابن زبالة، هو محمد بن الحسن المدني من أصحاب الإمام مالك صاحب المذهب المعروف به، توفي في حدود سنة ٢٠٠ هـ، له كتاب «تاريخ المدينة» أو أخبار المدينة، ألفه سنة ١٩٩ هـ. وهو من أقدم الكتب في بابيه.

(٩) ابن شبة: هو عمر بن شبة النميري، أبو زيد البصري ثم البغدادي، أخباري ولد سنة ١٧٣ هـ وتوفي بسرّمن رأى سنة ٢٦٢ هـ، له كتاب «أخبار المدينة».

(١٠) أحمد بن حنبل، صاحب المذهب المعروف به، شيباني ثم مروزي ثم بغدادي. ولد ببغداد في شهر ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ وتوفي بها يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ٢٤١ هـ، وهو مشهور.

(١١) أبو يعلى، هو: محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد الفراء، على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل، توفي في ليلة الاثنين ١٩ رمضان سنة ٤٥٨ هـ ودفن بمقبرة الإمام أحمد بن حنبل ببغداد.

فليستغفر الله ثلاثاً، ولهذا قال عيسى بن دينار^(١٢)، من سمي المدينة يثرب كُتبت عليه خطيئة».

وقد إلترزم المسلمون بما أمرهم به نبيهم محمد ﷺ. فمنذ فجر الاسلام حتى اليوم والمسلمون يطلقون على دار الهجرة اسم «المدينة» وربما أضافوا إليها كلمة «المنورة» من قبيل التكريم لأنها ضمت في تربتها جثمان النبي الطاهر وأحياناً من أجل تمييزها عن غيرها من المدن الأخرى. على أنه يمكن القول، بأنه عندما يتناول الكلام جغرافية الحجاز أو السيرة النبوية فإن كلمة المدينة إذا وردت اتجه الذهن رأساً إلى مدينة الرسول ﷺ التي كانت تسمى في الجاهلية يثرب..

وإن اللغويين وضعوا قواعد، شكلية، فيما يتعلق بالنسبة إلى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام وبالنسبة إلى غيرها من المدن الأخرى، كمدينة أبي جعفر المنصور التي كان إسمها عند بنائها دار السلام. ثم أصبحت تعرف بالمدينة المدورة وبعد ذلك سميت مدينة المنصور إلى أن استقر عليها أخيراً اسم «بغداد».

فقد جاء في «لسان العرب»: وإذا نَسَبْتَ إلى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام قلت مَدَنِيٌّ، وإلى مدينة المنصور مَدِينِي، وإلى مدائن كسرى مدائني، للفرق بين النسب لثلاثا يختلط.

على أن ابن دحية قال في كتابه «خصائص الأعضاء»: النسب إلى المدينة النبوية مديني وإلى مدينة أبي جعفر المنصور، وهي بغداد مدني، لأن الميم فيها أصلية والياء زائدة^(١٣).

(١٢) عيسى بن دينار هو: من المحدثين، ذكره ابن حجر العسقلاني في تهذيبه وذكر أن البخاري قال عنه إنه ثقة.

(١٣) تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد، للجرّاعي، تحقيق الشيخ طه الولي طبعة (١) بيروت سنة ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) ص ١٥١، وابن دحية هو: عمر بن الحسن الجميل الكلبي، ولد في ذي القعدة سنة ٥٤٦ هـ وتوفي يوم ١٤ ربيع الأول سنة ٦٣٢ هـ، وكانت ولادته في بلنسية في الأندلس. ووفاته بالقاهرة. وهو أول من ألف «المولد» في الإسلام.

والمدلول الثاني الذي وضعه الإسلاميون للتعريف بالمدينة هو أنها البلد الذي يكون فيها منبر، والمقصود بالمنبر هنا هو المسجد الجامع الذي تقام فيه الصلاة الجامعة يوم الجمعة، حيث يدعو فيه الخطيب للخليفة الحاضر أو السلطان القائم وفي هذا المعنى قال آدم متر (ADAM MEZ) في كتابه «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» عند كلامه عن «أحوال المدن»:

«... والعلامة التي تعرف بها المدينة، هي أن يكون بها منبر» ونقل متر عن كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي أنه كان ببلاد ما وراء النهر - أي آسيا الوسطى في الاتحاد السوفياتي اليوم - قرى كبار لا يعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا الجامع... وكم تعب أهل بيكند حتى وضعوا بها المنبر!...^(١٤).

وإن بعض الفقهاء، لا سيما الأحناف منهم، يشترطون أن لا تقام الجمعة إلا في المدن التي تقام فيها الحدود، أي العقوبات الجزائية التي فرضها الإسلام على المخالفين للأحكام الدينية والشرعية. وعلى هذا يمكن أن تعرف المدينة في الإسلام بأنها المكان الذي تستوفى فيه أسباب العدل والأمن أكثر من أي مكان آخر، لكونها المقر المركزي للسلطة الحاكمة. وبذلك قصرنا اسم المدينة على البلد الذي يكون فيه مقر السلطان أو من ينوب منابه. فإن كان صاحب السلطة هو الخليفة نفسه كانت المدينة عاصمته، وإن كان صاحب السلطة الوالي فإن المدينة هي عاصمة إقليم هذا الوالي. وإن كان صاحب السلطة قائداً على الثغور. كانت «المدينة» قاعدة لما يليه هذا القائد من الثغور.

وإذا رجعنا إلى ابن خلدون الذي كانت مقدمته المشهورة أول ما وضع في مبادئ علم الاجتماع (Sociologie) في القرون الوسطى، فإننا نجد في هذه المقدمة أن مؤلفها العالم الاجتماعي الكبير قد لاحظ ارتباط معنى «المدينة»^(١٥) بسيادة الدولة فيها، مع ما تقتضيه هذه السيادة من سلطة الأمر والنهي والاهتمام

(١٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متر (الترجمة العربية لمحمد عبد الهادي أبي ريدة ج ٢ ص ٢٢٣).

(١٥) مقدمة العلامة ابن خلدون، طبعة (٣) بالمطبعة الأدبية في بيروت سنة ١٩٠٠ م، ص ٣٦٨.

بالعمران والاستقرار. وذلك حيث قال في المقدمة المذكورة «إن الحضارة في الأمصار - يعني المدن - من قبل الدول، وأنها - أي الأمصار - ترسخ باتصال الدولة ورسوخها»^(١٦).

وعلى هذا، فإن المدينة، حتى تسمى مدينة، لن يتأتى لها ذلك بسبب اتساع رقعة مساحتها ولا بكثافة عدد سكانها. ولكن بوجود السلطة الحاكمة فيها، إذن حيث تكون السلطة الحكومية بمؤسساتها الادارية والتنفيذية والقضائية تكون ثمة «المدينة»^(١٧).

طبقات المدن كما حددها الجغرافيون الإسلاميون

لسنا الآن بصدد ما ورد في كتب المؤرخين والجغرافيين المسلمين بشأن الصفات العامة التي اشتهرت بعض المدن بها. مثل قول الجاحظ، الأمصار عشرة: الصناعة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة، والخير ببغداد، والعذر بالرّي، والحسد بهرة، والجفاء بنيسابور، والبخل بمرو، والطمرة بسمرقند، والمروءة ببلخ، والتجارة بمصر»^(١٨).

إذ أننا نعتقد أن مثل هذا التصنيف لا يعدو أن يكون انطباعاً شخصياً لواضعه نتيجة لمزاجه الخاص أو لتأثره بظروف معينة انعكست في أقواله. وما نقصده بقولنا «طبقات المدن» هو تحديد أسماؤها في ضوء تقسيماتها الإدارية داخل

(١٦) كان العرب يسمون المدينة الكبيرة «مصرأ» وكانت كلمة «مصر» في صدر الإسلام أيام الفتوح الأولى تطلق على عواصم أقاليم البلاد المفتوحة، ومن أشهر المدن التي انسحب عليها اسم «المصر» مدينة الكوفة والبصرة في العراق، وكثيراً ما كان المؤرخون الإسلاميون يجمعون هاتين المدينتين تحت اسم «المصران».

(١٧) راجع ما كتب في هذا الصدد المستشرق إيرا لايدوس (IRA LAPIDUS) في كتابها: MIDDLE ESTERN Cities, P. 74, CALIFORNIA / 1969

- أشار إلى هذا الكتاب أحمد مختار العبادي، في مجلة «عالم الفكر» الكويتية، المجلد (١١) العدد الأول سنة ١٩٨٠ م.

(١٨) نقلنا هذا الكلام من كتاب «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» تأليف آدم متر (الترجمة العربية) ومصدره كما يقول مؤلف الكتاب «تاريخ بغداد» مخطوط باريس ص ١٥.

كل قطر من الأقطار الإسلامية، ثم نتقل بعد ذلك إلى تحديد أسمائها من خلال أغراضها العسكرية على تخوم الدولة الإسلامية.

ونبدأ أولاً بالكلام على طبقات المدن من الناحية الإدارية وفقاً لما كان عليه وضعها العصور الإسلامية المتقدمة. فنقول إن هذه الطبقات كانت كما يلي: الأمصار - القصبات - المدن أو المدائن - النواحي - القرى.

وفيما يلي توضيح طبيعة كل طبقة في حدود النظم الحكومية التي كانت سائدة:

١ - الأمصار:

هي جمع ومفردها المِصر، بكسر الميم وتسكين الصاد، والمصر في اللغة هو الحاجز بين الشئين. وقيل للمدينتين الكوفة والبصرة، في العراق، المِصران. لأن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ثاني الخلفاء الراشدين، قال لقواد الحملة الذين حرروا العراق من الفرس وأسسوا المدينتين المذكورتين «لا تجعلوا البحر فيما بيني وبينكم، مَصْرُوها. ومَصْرُوها هنا أي صيروها مصراً بين البحر وبينني، أي حداً».

وفي حديث مواقيت الحج: لما فُتح هذان المِصران، أي الكوفة والبصرة. ومن الناحية الاصطلاحية، كما جاء في معجم «لسان العرب»: المصر في كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود - أي تكون فيها سلطة تنفيذية - ويُقسم فيها الفيء، والصدقات من غير مؤامرة للخليفة. وقوله من غير مؤامرة للخليفة، أي من غير الرجوع إليه لمعرفة رأيه أو الحصول على إذنه.

والأمصار، حسب المفهوم الإداري الإسلامي القديم هي البلاد التي يقيم بها السلطان - أي رئيس الدولة - وتجتمع فيها الدواوين - أي الحكومة - وتقلد منها الأعمال - أي توجه الوظائف - وتضاف إليها مدن الأقاليم - أي تتبع بها بقية الوحدات الإقليمية الأخرى التي يتألف منها القطر.

٢ - القصبات :

هي جمع ومفردها «القَصَبَة» بفتح القاف والصاد والباء . والقصبَة في اللغة معناها جوف القصر، كما قيل إنها القصر نفسه . والقصبَة أيضاً يراد بها البناء الذي يكون في جوف الحصن . وأحياناً يطلق اسم «القصبَة» على المدينة أو على معظمها، أي قسمها الرئيسي، ويقال كذلك: قصبَة البلاد أي مدينتها، كما تطلق القصبَة بمعنى القرية، أو وسط القرية .

وفي الاصطلاح الإداري الإسلامي، فإن المسلمين استعملوا «القصبات» بمعنى عواصم الأقاليم الجهوية، وصنفوها بمقام الحُجَّاب من الملوك .

٣ - المدن، أو المدائن

هي جمع، ومفردها «المدينة» وقد سلف منا القول في معناها من حيث اللغة فلا حاجة للتكرار . وقد جاء لفظ المدائن في القرآن الكريم إشارة إلى المدن التي كانت تحت سلطان فرعون مصر أيام موسى النبي . وذلك في قوله تعالى بالآية ١١١ من سورة الأعراف ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ وتكررت الآية نفسها بهذا النص في الآية ٣٦ من سورة الشعراء . وفي الآية ٥٣ من هذه السورة قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ والمقصود بكلمة «المدائن» في كل مرة هو المدن التي كانت بحوزة فرعون مصر أيام موسى النبي . وهذه الكلمة في الاصطلاح الإداري الإسلامي تطلق على ما يلي القصبَة في الأقاليم، ومقامها مقام الجند عند الملوك .

٤ - النواحي :

هي جمع ومفردها «الناحية» ومعناها في اللغة: جانب الشيء . وفي الاصطلاح الإداري الإسلامي كانت تطلق على الجهة، أو المنطقة التابعة لغيرها من الوحدات الإقليمية التي هي أكبر منها .

٥ - القرى :

هي جمع، ومفردها «القرية» بفتح القاف وبكسرها . وقد فسرها معجم لسان العرب بالمصر الجامع، وقال: القرية من المساكن والأبنية والضياع قد

تطلق على المدن. وفي «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، القرية: المدينة، سميت بذلك لأنها تَقَرَّتْ، أي اجتمعت، ومنه قرية الماء في الحوض، أي جمعته. والقرية، بكسر القاف، لغة اليمن.

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم عدة مرات، مفردة ومثناة وجمعاً. على أن المقصود بها لم يكن دائماً واحداً، بل هو يختلف من حين لآخر وفقاً للمناسبة التي أنزلت بها الآية التي تتضمنها. من ذلك:

١ - القرية: بمعنى البلد الكبير يكون أقل من المدينة، أو هي كل مكان اتصلت به الأبنية ومثناها: قريتان، والجمع قرى، وفيما يلي الآيات التي جاءت في القرآن الكريم بهذا المعنى:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...﴾ (البقرة / ٥٨ والأعراف / ١٦١).

قل القرطبي: اختلف في تعيينها - أي هذه القرية - فقال الجمهور هي بيت المقدس وقيل إريحا، من بيت المقدس، قال عمر بن شبة: كانت قاعدة ومسكن ملوك، ابن كيسان: الشام، الضحّاك: «الرملة والأردن وفلسطين وتدمر».

- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا...﴾ (البقرة / ٢٥٩).

قال المفسرون إن هذه القرية هنا هي حطام البيوت التي كانت في وسط بيت المقدس بعد أن دمرها بختنصر البابلي.

- ﴿... وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء / ٧٥).

اجمع المفسرون بأن المقصود بالقرية هنا مكة المكرمة.

- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الانعام / ١٢٣).

يقصد بالقرية هنا المعنى العام لهذه الكلمة وهو المدينة.

- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

المقصود بالقرية هنا معناها العام، كما في السابق.

- ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا﴾. (الكهف / ٧٧).

قيل إن هذه القرية هي: ابلة، بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة (ياقوت في معجم البلدان). وقيل إنها انطاكية، وقيل إنها الجزيرة الخضراء بالأندلس. وقيل إنها باجروان بناحية أذربيجان. وقيل إنها برقة، وقيل هي إحدى قرى الروم واسمها ناصرة وإليها تنسب النصارى، نقول: والله أعلم بحقيقة هذه القرية واسمها ومكانها.

- ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾. (الفرقان / ٤٠).

هذه القرية، قيل إنها قرية قوم لوط ويقصد بها مدائنهم في فلسطين، جبرها الله وردها للعروبة والإسلام.

- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾. (الفرقان / ٥١).

المقصود بالقرية هنا، معناها العام بدون تحديد اسمها أو مكانها.

- ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. (النحل / ٣٤).

وردت كلمة القرية هنا بمعناها العام، كما في السابق.

- ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. (العنكبوت / ٣٤).

المقصود هنا قرية قوم لوط في فلسطين، جبرها الله وردها للعروبة والإسلام.

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (سبأ / ٣٤).

يقصد بالقرية هنا معناها العام كما في السابق.

- ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس / ١٣).

قيل إن هذه القرية هي أنطاكية، اتفق على هذا التأويل جميع المفسرين.

- ﴿وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف / ٢٣).

القرية هنا واردة بمعناها العام بدون تحديد الاسم والمكان.

٢ - القرية ويراد بها بطريق المجاز الناس الذين يقيمون فيها، وذلك من قبيل إطلاق اسم المكان على السكان.

- ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (الاعراف / ٤).

المراد بالقرية هنا سكانها.

- ﴿وَسَأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ، كَذَلِكَ يَتْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الاعراف / ١٦٣).

المراد بالقرية هنا، سكانها.

- ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس / ٩٨).

المراد بالقرية هنا سكانها.

- ﴿وَسُئِلَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (يوسف / ٨٢).

المراد بالقرية هنا سكانها، وهي مصر، والمقصود أهلها المصريون. وقيل بل المراد بها إحدى قرى مصر التي نزل بها إخوة يوسف النبي للتزود بالميرة والطعام.

- ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (الحجر / ٤).

المراد بالقرية هنا السكان في أي بلد كانوا.

- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل / ١١٢).

اختلف المفسرون في تأويل معنى القرية هنا، وفيما يلي أقوالهم:

أ - المراد بالقرية أهل مكة من مُضَرَ.

ب - أو أهل مكة عموماً.

ج - أو أهل المدينة، بسبب قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه (؟) وما حدث بها بعد رسول الله ﷺ من الفتن (وهذا القول منسوب إلى حفصة وعائشة زوجي النبي ﷺ).

د - أو أن المقصود بالقرية كل جماعة ينطبق عليهم معنى الآية.

- ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الاسراء / ٥٨).

المراد بالقرية هنا، الناس طراً حيثما سكنوا من البلاد في جميع أنحاء العالم.

- ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (الانبياء / ٦).

المراد بالقرية هنا، قوم صالح (النبي) الذين كانوا سكانها.

- ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الأنبياء / ١١).

قيل في المراد بالقرية هنا، سكان بعض المدن في اليمن. وقيل المراد بها أهل حَضُور وكان بُعث إليهم نبي اسمه شعيب بن ذي مَهْدَم، وهو غير شعيب النبي صاحب مَدِين وكانت حضور بأرض الحجاز من ناحية الشام.

- ﴿وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاسِقِينَ﴾ (الأنبياء / ٧٤).

المراد بالقرية هنا: أهل سدوم وكانوا يسكنون سبع قرى، قلب الله تعالى ستاً منها وأبقى السابعة وهي قرية زغر التي فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد الشراة (جبل من عرفات الى حد نجران، بالحجاز) وإنما أبقى الله هذه القرية من أجل لوط النبي وعياله.

- ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء / ٩٥).

المراد بالقرية هنا الناس طراً في أي مكان كانوا.

- ﴿فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ، فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبُشْرٍ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ (الحج / ٤٥).

المراد بالقرية هنا سكانها.

- ﴿وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ، ثُمَّ أَخَذْتُهَا، وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (الحج / ٤٨).

المراد بالقرية هنا، الناس جميعاً في أي مكان كانوا.

- ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ (الشعراء / ٢٠٨).

المراد بالقرية هنا، الناس في كل مكان من أنحاء العالم.

- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتُهَا، فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص / ٥٨).

المراد بالقرية هنا، الناس في أي بلد من البلاد.

- ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكِنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (محمد / ١٣).

المراد بالقرية هنا، أهلها.

- ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا﴾ (الطلاق / ٨).

المراد هنا بالقرية، أهلها القاطنون فيها.

- ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الانعام / ٩٢).

المراد بأُم القرى، سكان مكة المكرمة وما حولها من القرى.

- ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى / ٧).

المراد المعنى نفسه في الآية السابقة.

طبقات المدن الإسلامية العسكرية

في السطور السابقة قدّمنا أقسام المدن التي كانت لها صفة إدارية في العالم الإسلامي. وإننا الآن نأتي على بيان أصناف المدن التي دخلت في التاريخ الإسلامي تحت تسميات اصطلاحية مستمدة من طبيعة دورها في الحياة العسكرية عند المسلمين.

ومن المعروف أن الإسلام، بوصفه ديناً يلزم اتباعه بالدعوة إليه والحفاظ عليه وحضّ الناس جميعاً على الدخول فيه بالوسائل الفكرية والمادية التي قررها الكتاب الكريم والسنة المشرفة. ولذلك فإن الشريعة الغراء قسمت العالم إلى قسمين: أحدهما «دار الإسلام»، أي البلاد الإسلامية، والآخر «دار للحرب».

وهذا التقسيم متفق عليه عند كتاب السير، أو ما يسمى في أيامنا، القانون

الدولي الخاص والقانون الدولي العام، على أن هناك بعض هؤلاء الكتاب أضافوا قسماً ثالثاً، يتوسط الدارين المذكورين وهذا القسم الثالث أطلقوا عليه اسم «دار العهد» أي البلاد التي تعاقدت مع المسلمين على المودعة بموجب عهد (معاهدة) لفترة من الزمن، على غط عهد الحديبية الذي عقد بين النبي ﷺ وبين كفار قريش في العام السادس بعد الهجرة^(١٩).

والمدن العسكرية في الإسلام يقابلها في أيامنا ما يطلق عليه عادة اسم «القواعد العسكرية» التي تقيمها الدول داخل ترابها الوطني أو خارجه، سواءً في البر أو في البحر، وذلك من أجل استخدامها لدعم استراتيجيتها الحربية الذاتية أو لاستخدامها في عملياتها المسلحة عند نشوب القتال بينها وبين أعدائها أو عند توقع نشوبه.

والمدن العسكرية في الإسلام تندرج تحت أربعة أسماء وهي التالية:

١ - الثغور - ٢ - الرباطات - ٣ - العواصم - ٤ - العسكر.

وفيما يلي تفصيل الكلام في هذا النوع من المدن، لغة واصطلاحاً.

١ - الثغور:

وهي جمع ومفرد لها الثغر. ولها في اللغة أكثر من معنى، قال صاحب «تاج العروس من جواهر القاموس»: الثغر، من خيار العشب. . والثغر كل جوبة أو عورة منفتحة. . والثغر، الفم أو هو اسم الأسنان كلها. . والثغر، ما يلي دار الحرب. . والثغر، موضع المخافة من خروج البلدان. . والثغر هو الموضع الذي يكون حداً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار. . وأصل الثغر الكسر والهدم، وثغرت الجدار: هدمته ومنه قيل للموضع الذي تخاف أن يأتيك العدو منه في جبل أو حصن: ثغر، لاتلافه وإمكان دخول العدو منه.

(١٩) كانت مدة العمل بعهد الحديبية عشر سنين، ومن هنا تقرر في الإسلام أن لا تتجاوز المعاهدات التي تبرم بين المسلمين وبين أهل الأديان الأخرى مدة عشر سنين، حتى لا تتحول إلى صلح دائم بحيث يتعطل الجهاد الذي فرضه الإسلام من أجل حماية الدعوة ونشرها في الخافقين.

وفي الاصطلاح العسكري عند المسلمين فإن الثغور هي المدن الحصينة التي أنشئت على حدود الدولة الإسلامية لاستعمالها في صد العدو أو لتكون منطلقاً للإغارة عليه داخل أراضيه الإقليمية.

والثغور، بوجه عام، يمكن أن تطلق عليها اسم «المسالح» أي المدن المسلحة، وهي في العادة تكون في التخوم البرية التي تفصل دار الإسلام عن دار الحرب، أو بكلمة أخرى، التي تتصل ما بين الدول الإسلامية وبين الدول الأجنبية، وذلك في الجهات المتقابلة بين هذي وتلك على الأرض اليابسة، على أن جرجي زيدان عندما تكلم عن الثغور في كتابه: «تاريخ التمدن الإسلامي» قال: «ويراد بها حدود المملكة الإسلامية براً وبحراً.. وكانت ثغور الشام في أيام الخلفاء الراشدين أنطاكية وغيرها من السواحل التي سماها الرشيد عواصم... وفعلوا - أي المسلمون - نحو ذلك في حدود المملكة الإسلامية من جهة البر، فاتخذوا مدناً حصينة جعلوها ثغوراً يقيمون فيها الجند والسلاح في قلاع، لدفع العدو أو لغزو بلاده... والحدود البحرية هي على الإطلاق ثغور الشام ومصر...»^(٢٠).

وقد جرت عادة الصحف بأواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي أن تطلق اسم «الثغر» على أي مدينة إسلامية واقعة عند ساحل البحر، فكانت تقول: ثغر بيروت، وثغر طرابلس، وثغر الاسكندرية... وهكذا بالنسبة لجميع المدن الساحلية في الأقطار الإسلامية. وهو استعمال طارئ على هذا النوع من المدن، وقد طوى الزمن هذا الاصطلاح ولم يعد أحد من أبناء زماننا يستعمله. وأغلب الظن أن أهل القرن الماضي كانوا يطلقون على المدن المذكورة اسم «الثغر» تشبيهاً لها بالمعنى اللغوي لهذه الكلمة وهو الفم، كما بينا من قبل، وذلك أن هذه المدن الساحلية تعتبر مدخلاً إلى ما وراءها من المدن البرية مثلما أن الفم هو المدخل إلى باطن الإنسان.

(٢٠) تاريخ التمدن الإسلامي، تأليف جرجي زيدان، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

تاريخ الثغور وأنواعها ومواطنها

أرجع المؤرخون تاريخ إنشاء الثغور في الإسلام إلى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ذكر الطبري^(٢١) أن عمر خرج إلى الشام في خروجه الأخيرة سنة ١٧ هـ «وقسم الأرزاق وسمى الشواقي والصوائف وسدّ فروج الشام ومسالحها وأخذ يدور بها وسمى ذلك في كل كورة... وقفل عمر من الشام إلى المدينة في ذي الحجة (سنة ١٧ هـ) وخطب حين أراد الفصول، فحمد الله وأثنى عليه وقال: ألا إني وليت عليكم وقضيت الذي عليّ في الذي ولاني الله من أمركم، إن شاء الله قسطننا بينكم فيأكم ومنازلكم ومغازيكم وأبلغنا ما لديكم، فجندنا لكم الجنود وهيأنا لكم الفروج وبوأناكم ووسّعنا عليكم ما بلغ فيؤكم وما قاتلتكم عليه من شأنكم وسمينا لكم أطباعكم وأمرنا لكم باعطائكم وأرزاقكم ومعادنكم فمن علم علم شيء ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله. وحضرت الصلاة وقال للناس لو أمرت بلالاً^(٢٢) فأذن فأمره فأذن، فما بقي أحد كان أدرك رسول الله ﷺ وبلال يؤذن إلا بكى حتى بلّ لحيته، وعمر أشدهم بكاءً وبكى من لم يدركه ببيكائهم ولذكره ﷺ».

ويتبين من كلام الطبري أن عمر بن الخطاب أطلق اسم «الفروج» على ما عرف بعده باسم «الثغور» وكلا الإسمين هما لمسمى واحد، فقد جاء في «لسان العرب»: الفرج، الثغر المخوف، وهو موضع المخافة، قال (أي الشاعر):

فغدت، كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة : خلفها وأمامها

وجمعه فروج، سمي فرجاً لأنه غير مسدود، وفي حديث عمر: قدّم رجل من بعض الفروج، يعني الثغور، وأحدها فرج. قال أبو عبيدة^(٢٣) الفرجان:

(٢١) تاريخ الأمم والملوك، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبع المطبعة التجارية بمصر سنة ١٣٥٧ هـ (١٩٣٩ م) ج ٣ ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٢٢) بلال: هو بلال بن رباح الحبشي، مؤذن النبي ﷺ وخازنه على بيت المال، شارك النبي ﷺ في جميع حروبه، توفي بدمشق سنة ٢٠ هـ، وقبره فيها يزار ويتبرك به.

(٢٣) أبو عبيدة، واسمه معمر بن المثنى، عاش في البصرة وتوفي فيها سنة ٢٠٩ هـ وكان عالماً لغوياً =

السند وخراسان، وقال الأصمعي: سجستان وخراسان، وأنشد قول الهذلي:
عَلَى أَحَدِ الْفَرَجَيْنِ كَانَ مُؤْمِرِي.

وفي عهد الحجاج: استعملنك على الفرجين والمصريين؛ الفرغان: خراسان
وسجستان، والمصران: «الكوفة والبصرة».

وإن البلاذري أشار في كتابه: فتوح البلدان^(٢٤)، إلى أن الثغور انشئت في
تخوم الدولة الإسلامية المقابلة لبلاد الروم - تركيا اليوم - وكان ذلك في أيام عمر
ابن الخطاب.

المدن الثغور: سبب انشائها

وكان الذي حدا بالخليفة عمر بن الخطاب أن يتخذ المدن الثغور لجنود
المسلمين في تخوم الدولة الإسلامية على عهده، هو حرصه على أن لا يقيم هؤلاء
الجنود داخل المدن التي يفتحونها، بل يظلوا في أرياضها وضواحيها لكي لا
يظلموا أهل هذه المدن عند مشاركتهم سكنها، هذا من جهة، ومن جهة ثانية
رغبته في أن يبقى العرب محتفظين بأصالتهم القومية وأن تبقى طبائعهم العربية
خالصة من شوائب العجمة والهجنة. ولقد كان من عادة الخلفاء، منذ أيام عمر
أن يرسلوا مع جنود الفتح عائلاتهم للإقامة معهم حيث ينتهي بهم الفتح،
فكان هذا الوضع، بالإضافة إلى العاملين السابقين من الأسباب التي حثت
بعمير والخلفاء الذين جاؤوا من بعده، أن يؤسسوا مدناً يستقل الجنود بالسكن
فيها. وبطبيعة الحال فإن هذه المدن كانت تصمم على أساس عسكري وتقام في
مواقع ملائمة من الناحية الحربية لكي تكون صالحة لرد العدو الخارجي وكذلك
لقمع الاضطرابات والفتن الداخلية.

= مع ميل إلى رأي الخوارج، وهو شعوبي شديد الكره للعرب. ولم يسلم من لسانه شريف ولا
غيره، فلما مات لم يحضر جنازته أحد.

(٢٤) كتاب «فتوح البلدان» ص ١٧٢ تأليف أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي الشهير بالبلاذري.
الطبعة الأولى بالقاهرة - طبع بمطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) ص ١٧٠
وما بعدها.

وعندما انفرد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بحكم بلاد الشام وجه اهتمامه للعناية بالمدن الثغور لا سيما ما كان منها على حدوده مع أرض الروم، وأخذ يوالي تقوية هذه المدن العسكرية وأنزل فيها جنوداً لحماية حدوده ثم عمد إلى تشجيع الناس على المراقبة فيها هم وعائلاتهم وجعل عليهم قادة يرتّبون شؤونهم وينظمون حملاتهم الحربية في غزوات دائمة، يمكن تسميتها «بالدوريات» حسب اصطلاح أهل زماننا. وكانت هذه الدوريات تقوم بغزواتها في أراضي العدو تارة خلال فصل الصيف، ولذلك اشتهرت باسم «الصوائف» وتارة خلال فصل الشتاء، ولذلك اشتهرت باسم «الشوائف» ويحدثنا البلاذري أن معاوية لم يكتف بأن يترك الثغور في عهدة القواد الذين كان يرتبهم فيها، بل إنه كثيراً ما قصدها بشخصه وانطلق منها بما فيها من الجنود موعلاً في أرض العدو. فلقد قاد هذا الخليفة العربي الباسل كثيراً من «الصوائف» بهدف استطلاع احوال هذه الثغور. ومن أشهر «الصوائف» التي قادها تلك التي كانت عام ٢٥ هـ حين أغار على عمورية واقترب من البوسفور الذي يحاذي القسطنطينية، وفي سنة ٣١ هـ خرج معاوية «بالصوائف» من ناحية المصيصة وأغار على البيزنطيين فبلغ درولية، قال البلاذري: فلما خرج - أي معاوية - جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية الا هدمه^(٣٥).

الثغور الهندية والثغور الرومية

كتب تقويم البلدان التي وصفها الجغرافيون المسلمون ذكرت أن المدن العسكرية التي أنشأها العرب على تخوم الدولة الإسلامية الفاصلة بينها وبين الدول الأجنبية عرفت تحت اسمين وهما: الثغور الهندية والثغور الرومية.

الثغور الهندية هي المدن العسكرية الإسلامية التي أقيمت بمواجهة بلاد الهند وأهم هذه الثغور:

- جنزة، بفتح الجيم، واشتهرت عند العامة باسم كَنَجَة، وهي بين شروان

(٢٥) فتوح البلدان ص ١٧٢.

وأذربيجان في بلاد أرَّان من أصقاع ارمينية، وهي اليوم من بلاد الاتحاد السوفياتي.

- اسفيجاب، بالفتح ثم السكون، قال ياقوت في معجم البلدان إنها من أعيان بلاد ما وراء النهر (أي آسيا الوسطى بالاتحاد السوفياتي اليوم). . كانت ثغراً عظيماً، فكانت تعفى من الخراج وذلك ليصرف أهلها خراجها في ثمن السلاح والمعونة على المقام بتلك الأرض.

- طراز، بعضهم فتح أولها وآخرون كسره. وهي بلدة قريبة من اسفيجاب، قال ياقوت إنها من ثغور الترك، أي في بلاد التركستان بالاتحاد السوفياتي اليوم.

- نزاوة، وهي قرية من بلاد الديلم، يعني بلاد الفرس.

والثغور الرومية، وهي المدن العسكرية التي أنشأها العرب على امتداد حدود الدولة الإسلامية بمواجهة أرض الروم، أي الامبراطورية البيزنطية آنذاك وهذه الثغور كانت قسمين: الثغور الشامية، والثغور الجزرية. والثغور الشامية، نسبة إلى بلاد الشام، والثغور الجزرية نسبة إلى جزيرة ابن عمر المحاذية لشمال العراق من ناحية الغرب.

والثغور الشامية هي التالية:

- طرسوس، بفتح أولها وثانيها: وقد بدء بنائها في أيام المهدي العباسي بناء على تقرير قدمه إليه القائد الحسن بن قحطبة الطائي وتم البناء في أيام ولده هارون الرشيد وذلك سنة ١٧٢ هـ. وكان تمامها على يد سليمان خادم الرشيد.

- أذنة، وتسمى اليوم أضنة وهي الآن في بلاد الترك، وهي ثغر أنشأه العرب وسموها أذنة لأنها تؤذن بنهاية أرض المسلمين وبداية أرض الروم.

- المصيصة، وتسمى اليوم بـ «ميسيس» وتقع على شاطئ نهر جيحان، أنشئت سنة ٨٤ هـ أيام الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، وقد عدها ياقوت في جملة الثغور الشامية.

- الكنيسة السوداء، وتسمى اليوم «القرنة السوداء» وهي أعلى قمة في سورية، بناها هارون الرشيد على انقاض مدينة قديمة وحصنها وندب إليها المقاتلة وزاد في أعطيائهم.

- الهارونية، أخذت اسمها من هارون الرشيد الذي أمر ببنائها سنة ١٨٣ هـ.

وأما الثغور الجزرية فهي التالية:

- مرعش، قال ياقوت إنها «مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم». أحدثها هارون الرشيد حول حصن قديم كان قد بناه مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية المعروف بمروان الحمار لما كان يتصف به من صبر وجلد على تحمل المتاعب والمكاره.

- الحدث، وهي بين ملطية وسميساط ومرعش، وكل هذه المدن من الثغور، بنيت وتهدمت أكثر من مرة، فلما ولي المهدي العباسي، رمّها وشحنها بالمقاتلة وسميت في عهده المحمدية، والمهدية، نسبة إليه.

- سميساط، مدينة على شاطئ الفرات ببلاد الروم (تركية اليوم) اتُّخِذَتْ ثغراً في أيام معاوية بن أبي سفيان الذي أتم فتحها عندما كان والياً على الشام زمن الخليفة عثمان بن عفان.

- ملاطية، وقد ذكرها ياقوت باسم «مَلْطِيَّة» وقال إنها بلدة من بلاد الروم المذكورة مشهورة، تتاخم الشام. وفي سنة ١٤٠ هـ اتخذها ابو جعفر المنصور ثغراً وشحنها بالمقاتلة «الصوائف» الذين كانوا ينطلقون منها لغزو الروم.

المواحيز - المدن الثغور في مصر

وإلى جانب الثغور الهندية والرومية وما يتفرع من هذه الأخيرة من الثغور الشامية والجزرية فإنه كان هناك ثغور عرفت بأسماء أخرى وهي الثغور المصرية التي كان أهل مصر يسمونها «المواحيز» فلقد كانت هذه المواحيز في طبيعتها ومهمتها مدناً عسكرية إسلامية تؤدي الدور نفسه الذي تؤديه بقية الثغور

المنتشرة على حدود العالم الإسلامي إذ ذاك. فقد ذكر الكندي في كتابه «الولاية وكتاب القضاة»^(٢٦) أن اسماعيل بن عمرو العافقي قال: «كانت مواحيز مصر يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة (أي الجنود المحترفون والمرابطون المتطوعون) وكانت أحباس السبيل التي يتولّاها القضاة تجمع في كل سنة فإذا كان شهر أبيب من شهور القبط بعث القاضي لما اجتمع من أموال السبيل ففرّقت في مواحيز مصر من العريش إلى لويه (ليبيا اليوم) ومراقية (بلد يقع ما بين مصر وتونس) ففرّقت على المطوعة ومن كان فقيراً من أهل الديوان، فلما هاجت الفتنة أيام خلع محمد بن هارون (أي الخليفة الأمين ابن هارون الرشيد) تشاغل السلطان عن عطاء أهل الديوان وتعطلت المواحيز وانقطع عنها المطوعة لما كان الناس في الفتنة ثم ولي لهيعة بن عيسى^(٢٧) فجمع أموال السبيل^(٢٨) التي من الأحباس (أي الأوقاف) ففرض فيها فروضاً من أهل مصر وجعل فيها المطوعة (أي المتطوعين في الثغور) الذين كانوا يعمرّون المواحيز وأجرى عليهم العطاء من الأحباس فكان ذلك أول ما فرضت القضاة، فصارت سنة بعد لهيعة. ولم يكن الناس يسمونها إلا «فروض لهيعة» حتى كان ابن أبي الليث فسماها «فروض القاضي».

ولقد كان في مصر من هذه المواحيز عدد موزع على امتداد حدها الشمالي على البحر الأبيض المتوسط نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، مدينة الإسكندرية التي كان أمراؤها في صدر الإسلام ينطلقون منها بالسفن الحربية لضرب اسطول الروم، ويقول الدكتور السيد عبد العزيز سالم في «تاريخ

(٢٦) كتاب الولاية وكتاب القضاة، تأليف أبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري، مهذباً ومصححاً بقلم رفن كوست (R. Ceust). طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٠٨ م ص ٤١٨ - ٤١٩.

(٢٧) لهيعة بن عيسى الحضرمي، ولي قضاء مصر في أيام المأمون بن هارون الرشيد، وأقيل في شهر ربيع الأول سنة ١٩٨ هـ ثم أعيد إلى منصبه سنة ١٩٩ هـ إلى أن توفي سنة ٢٠٤ هـ.

(٢٨) أموال السبيل، هي نصيب أهل السبيل (أي الذين ضاقت أحوالهم أثناء السفى) من الزكاة وذلك بموجب ما جاء في القرآن الكريم حول مصارف الزكاة في الإسلام.

الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي^(٢٩) «أولاها الخليفة عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان من بعده عناية كبرى لأنها كانت معرضة للهجوم من البحر، وكانت أصلح موافء مصر لتزول العدو، لذلك اعتبرها المسلمون ثغراً من الثغور الإسلامية التي يجاهدون فيها. وكان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية، فكانت الولاة لا تغفلها وتكتف رابطتها ولا تأمن الروم عليها، وفي أيام معاوية ازداد عدد الحامية المراقبة في ثغر الإسكندرية من ثلاثة آلاف أول الأمر إلى ١٧ ألفاً ثم أصبحت ٢٧ ألفاً. وفي سنة ٢٥٦ هـ، عندما كان أحمد ابن طولون^(٣٠) حاكماً على مصر اعتبرت الإسكندرية أكبر قاعدة بحرية في الديار المصرية وبقيت كذلك في أيام ابنه خماورويه.

كما نذكر مدينة دمياط التي كانت بدورها ثغراً إسلامياً كبيراً لاسيما في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي أمر ببناء حصنها سنة ٢٣٩ هـ وشحنها بالمقاتلة لصد عدوان البيزنطيين المتوالي عليها. وكان ثغر دمياط يرتبط ارتباطاً بحرياً وثيقاً بالثغور الشامية وعلى الأخص ثغر صيدا في الساحل السوري.

كلام الرحالة ابن حوقل عن ثغر طرسوس

هذا وما دمنا في سياق الكلام عن الثغور التي كانت تشكل المدن العسكرية في الإسلام فإننا لا نرى بأساً من نقل ما كتبه الرحالة ابن حوقل عن ثغر طرسوس الذي يعتبر مثلاً كاملاً عن هذه المدن سواء بالنسبة لمكانته العسكرية أو بالنسبة لنوعية الجنود الذين كانوا مثاغر فيهِ. قال ابن حوقل^(٣١):

(٢٩) تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، تأليف الدكتور أحمد مختار العبادي والدكتور السيد

عبد العزيز سالم ط. جامعة - بيروت العربية سنة ١٩٧٢ م ص ٤٦.

(٣٠) أحمد بن طولون، ولد سنة ٢٢٠ هـ وتوفي سنة ٢٧٠ هـ، تركي مستعرب، كانت ولادته في

سامراء بالعراق ووفاته في القاهرة بمصر. ألف أبو محمد عبدالله بن محمد البلوي كتاباً سماه

«سيرة أحمد بن طولون» وهو مطبوع.

(٣١) كتاب صورة الأرض، لابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النضيمي) - منشورات مكتبة دار

الحياة بيروت ص ١٦٨ - ١٦٩.

«فأما من مدينة طرسوس، فكانت المدينة المشهورة المستغنى بشهرتها عن تحديدها، كبيرة، استحدثها المأمون ابن الرشيد ومدَّنها (أي جعلها مدينة) وجعل عليها سورين من حجارة، وكانت تشمل من الخيل والرجال والعدة والعتاد والكرع والسلاح والعمارة والخصب والغلات والأموال والسعة في جميع الأحوال على حال لم يتصل بمثله ثغر من ثغور المسلمين، لكافر ولا مُسلم، الى عزّ تام ونصر عام على جميع من وليها من رجال الإسلام، فما غزا في برّ أو بحر إلا وصَحَبَه من الظفر والنصر والغنائم بالقصر والقهر ما ينطبق الإخبار بتصديقه، والآثار بتحقيقه. وكان بينها وبين حد الروم جبال منيعة - متشعبة من اللكام كالحاجز بين العاملين. ورأيت غير عاقل مميّز وسيد حصيف مبرّز، يشار إليه بالدراية والفهم واليقظة والعلم والفتنة والسياسة والرياسة، يذكر أنه كان بها مائة ألف فارس وبعملها، وذلك عن قريب عهد من الأيام التي أدركتها وشاهدتها. وكان السبب في ذلك أن ليس مدينة عظيمة من حدّ سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والريّ وأصبهان وجميع الجبال، وطبرستان والجزيرة وأذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشامات، ومصر والمغرب، إلا وبها لأهلها (أي أهل طرسوس) دار ورباط ينزله غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها، وتردُّ عليها الجرايات والصلوات وتُدّر عليهم الانزال والحملان العظيمة الجسيمة، إلى ما كان السلاطين يتكلفونه، وأرباب النعم يعانونه وينفدونه متطوعين ويتحاضون عليه مُتبرّعين. ولم يكن في ناحية ذكرتها، رئيس ولا نفيس إلا وله عليها أوقاف من ضياع ذوات أَكْرة وزرّاع وغلّات، أو مسقّف من فنادق ودُور وحَمّامات وخانات، هذا إلى مشاطرة من الوصايا بالعين الكثير والورق والكرع الغزير. .».

وجدير بالذكر أن ثغر طرسوس كان يقوم بدور مزدوج، فمن جهة يحارب الروم ويصد عدوانهم على البلاد السورية ومن جهة أخرى يدافع عن سواحل مصر من غارات العبيدين عليها ومن أكبر المعارك التي خاضها هذا الثغر ضد العبيدين الحملة البحرية التي انطلقت منه في أيام الخليفة - العباسي المقتدر بالله واشتبكت مع السفن العبيدية في مياه رشيد (بمصر) سنة ٣٠٧ هـ وفي هذه

المعركة انتصر الميثاغرون الطرسوسيون على الأسطول العبيدي وأحرقوا أو أغرقوا جميع سفنه الحربية.

٢ - الرباطات

الرباط في الأصل: الإقامة على جهاد العدو بالحرب، وارتباط الخيل وإعدادها. والرباط مصدر رابطت أي لازمت، وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ وتفسير هذه الآية: اصبروا على دينكم وصابروا عدوكم ورابطوا أي أقيموا على جهاده بالحرب. وأصل الرباط من رباط الخيل وهو ارتباطها بإزاء العدو من أجل مقاتلته. هذا من الناحية اللغوية.

وأما من الناحية الاصطلاحية: فإن الرباطات هي المدن التي يرباط فيها المسلمون للجهاد في سبيل الدفاع عن الوطن وحماية الدعوة الإسلامية في دار الإسلام. دون أي طمع مادي في الأجر أو الحصول على المرتبات كما هو شأن الجنود المحترفين. ولهذا فإن الرباطات لا يكون فيها عادة الجنود المحترفون، وإنما يكون فيها مواطنون يكسبون رزقهم من الأعمال العادية التي يمتثلونها وعائلاتهم معهم، وإذا دعا داعي الجهاد نفروا للحرب حسبة لله تعالى.

والرباطات تقع في الأغلب على السواحل البحرية، وذلك بخلاف الثغور التي تقع، كما بينا، في التخوم البرية.

وعلى هذا، فالرباطات هي المدن العسكرية المشحونة بالمتطوعين من المجاهدين الذين كانوا يتناوبون على مراقبة تحركات العدو في البحر، جماعة بعد جماعة، بعضهم يقوم بهذه المراقبة وسائرهم يزاولون عملهم اليومي المعتاد، حتى إذا لاحت سفن العدو، نفروا جميعاً لمواجهة لها وأنذروا من يليهم من المسلمين بالخطر الداهم عليهم لكيلا يؤخذوا على حين غرة.

والمتطوعون الذين يلازمون الرباطات يدعون «المرابطون» ومفردا مرابط. وفي العالم الإسلامي، لا سيما في البلاد السورية، ما يزال اسم «المرابط» علماً على بعض العائلات المعروفة.

تطور المعنى الاصطلاحي لكلمتي الرباط والمرباط

على أن كلمة الرباط لم تعد تعني في العصور الإسلامية المتأخرة ما كانت تعنيه في صدر الإسلام والقرون القريبة منه. أي أن هذه الكلمة تحولت عن مفهومها العسكري المرتبط بالجهاد التطوعي في سبيل الله عن طريق ملازمة المرباط في الرباط مع أسرته وحضوره الدائم لتلبية داعي البذل والتضحية بلا مقابل عند اللزوم، وأصبح الرباط يعني ما تعنيه نفسه كلمتا الزاوية والخانكاه بالنسبة لأصحاب الطرق الصوفية. بل إن كلمة المرباط نفسها تستعمل اليوم في أوساط مسلمي أفريقية بمعنى «رجل الدين أو الشيخ الفقيه، وأول ما كان تحول كلمتي الرباط والمرباط من معناهما العسكري إلى معناهما الصوفي أو الفقهي كان في بربر صنهاجة إحدى قبائل الصحراء الكبرى في شمال أفريقية، ذلك أن يحيى ابن ابراهيم، رئيس هذه القبيلة تعرف إلى الشيخ عبدالله ياسين^(٣٢)، أحد رجال الدين الاتقياء وكانت هذه المعرفة سبباً لنشوء حركة المرباطين التي «دوخت المغرب إلى أن صار يدين بتعاليم الإسلام بعد أن كاد يتقلص منه» وكان كفا مقام مشهود في حروب المسلمين بالأندلس ضد النصارى الاسبان.

المدن «الرباط» على امتداد شواطئ البحر المتوسط

كانت المدن «الرباط» أي القواعد البحرية الإسلامية، منتشرة على جميع الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، الذي كان يسمى في أيام ازدهار الفتوحات العربية «بحر العرب» فمن الزاوية الشمالية الشرقية من هذا البحر، حيث الاسكندرون، حتى مدينة الصويرة التي تسمى اليوم مוגادور، على شاطئ بحر الظلمات (الاطلطي اليوم) أنشأ العرب ألف مدينة مما كان يسمى «الرباط» وذلك بمعدل رباط واحد كل ستة كيلومترات^(٣٣). وما تزال بعض هذه

(٣٢) هو عبدالله بن ياسين بن مكو الجزولي المصمودي، الزعيم الأول للمرباطين وجامع شملهم، وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم. كان صلة بين المغرب الأقصى وبين الأندلس. قتله مجوسى برغواطة سنة ٤٥١ هـ.

(٣٣) الحياة العسكرية عند العرب، تأليف إحسان هندي، طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق سنة ١٩٦٤ م ص ٢٢٤.

المدن تحمل اسم «الرباط» حتى اليوم، ومنها «الرباط» العاصمة الحالية للمملكة المغربية.

وفي بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى)

وكان المسلمون في بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى بالاتحاد السوفياتي اليوم) يتنافسون في بناء الرباطات التي كانوا يخصصون لها النفقات السخية حتى توفي بحاجة المجاهدين فيها من أجل الذب عن بيضة الإسلام والدفاع عن حوزة المسلمين. وفي هذا يقول الاصطخري في كتابه «مسالك الممالك»^(٣٤) «... وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر، حرق نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير، إلا القليل منهم، وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية أهلة إلا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه، وبلغني أن بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط في كثير منها إذا نزل النازل إليهم علف دابته وإطعام نفسه إن احتاج إلى ذلك...».

ثم إن الاصطخري عندما تحدث عن مدينة بيكند، فيما وراء النهر أيضاً قال: «إن بها من الرباطات ما لا أعلم من بلدان ما وراء النهر أكثر عدداً منها، وبلغني أن عددها نحو من ألف رباط للغزاة المجاهدين...»^(٣٥).

وعن الرباطات في بلاد ما وراء النهر حدثنا المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» أنه كان بمدينة اسفينجاب وهي ثغر جليل ودار جهاد ألف وسبعماية رباط يجيد فيها أصحاب الحاجة طعاماً لهم وعلفاً لدوابهم...».

وهنا لا بد من الإشارة إلى مدينتنا بيروت، عاصمة الجمهورية اللبنانية اليوم، التي كانت إحدى المدن «الرباط» في العصور الإسلامية المتقدمة، وقد تحدث عنها ابن حوقل من خلال هذه الصفة حيث قال^(٣٦): «... مدينة بيروت

(٣٤) كتاب مسالك الممالك لأبي اسحاق ابراهيم بن محمد الإصطخري المعروف بالكرخي. ص ٣٩٠.

(٣٥) المصدر السابق. ص ٣١٤.

(٣٦) كتاب صورة الأرض ص ١٦٢.

التي على ساحل بحر الروم . . وبها يربط أهل دمشق وسائر جندها، وينفرون إليهم عند استنفارهم . .».

كما حدثنا عنها ابو شامة، في كتابه «الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية» وقال: إنه كان يوجد على سواحلها في مكان يسمى الزيب أو الذئب^(٣٧) طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة إلى عكا ويقطعون الطريق على الفرنج، ومن أشهر المرابطين في بيروت الإمام عبدالرحمن الأوزاعي المدفون في ساحلها الجنوبي ومقامه يزار ويتبرك به^(٣٨).

العواصم

جمع ومفردها «العاصمة» وهي في اللغة تعني المانع والحامي . والعصمة هي الحفظ مادياً ومعنوياً . وقد تكررت كلمة «عاصم» ومشتقاتها في القرآن الكريم في العديد من الآيات المتفرقة في عدة سور، وهي كلها تدور في المعنى المتقدم .

أما في الاصطلاح فإن الجغرافيين المسلمين حددوا معنى كلمة «العاصمة» بقولهم «إنها مدينة ذات عدد كبير من السكان ولها محاكم قضائية وحاكم مقيم فيها وتتصف أيضاً بقدرتها على الانفاق على الخدمات العامة عن إيراداتها الخاصة، وهي مركز السلطة للمنطقة المحيطة بها . وفي بعض الحالات عرّف العرب بأنها الحاضرة (METROPOLIS) التي يقيم فيها كبار الرؤساء حيث يوجد مقر الأقسام الإدارية، ويتسلم الحكام الاقليميون أوراق اعتمادهم، فتسمى المنطقة بما فيها من مدن صغيرة باسم المدينة الكبيرة، مثل دمشق، والقيروان وشيراز»^(٣٩).

(٣٧) لعل المقصود هنا قرية جل الديب الواقعة إلى الشمال من مدينة بيروت في الطريق الذاهبة إلى طرابلس الشام.

(٣٨) وفي بيروت كان يربط كثير من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين . وإلى هذا أشار صالح ابن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» الذي حققه ونشره الأب لويس شيخو اليسوعي سنة ١٩٢٧ م - راجع ص ١٦ .

(٣٩) راجع كتاب «الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر للميلاد»، تأليف ص. م. ضياء الدين علوي، تعريب وتحقيق الدكتور عبدالله يوسف الغنيم والدكتور طه محمد جاد . طبع الكويت سنة ١٤٠١ هـ ١٩٨٠ م ص ١٧٢ .

وأول من وضع نظام العواصم في الإسلام هو الخليفة العباسي هارون الرشيد. ذلك أنه لما آلت الخلافة إليه سنة ١٧٠ هـ بادر إلى وضع نظام خاص بالثغور يتفق مع متطلبات المصلحة العسكرية في زمانه. وعندما تحدث ابن الأثير عن حوادث السنة المذكورة قال: «وفيها عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت بالعواصم» وأنشأ لهذه العواصم إدارة مستقلة وجعلها تابعة للجيش مباشرة تحت اسم «إقليم العواصم والثغور» ولعل الرشيد قد أراد بعمله هذا إنشاء إقليم إسلامي يكون مواجهةً ومشاهياً للإقليم البيزنطي الذي كان يحاذي الحدود الشمالية للدولة الإسلامية في عهد الخليفة المذكور. وإن الرشيد اختار لهذه المدن الثغور اسم العواصم لأنها تعصم أرض المسلمين من عدوان البيزنطيين عليها.

وإن البلاذري قد ذكر في كتابه «فتوح البلدان» هذا التدبير الاستراتيجي الذي اتخذه الرشيد لتنظيم الإدارة العسكرية في المناطق المحاذية للعدو البيزنطي وذلك حيث قال: «حدثني مشايخ أهل أنطاكية وغيرهم، قالوا: كانت ثغور المسلمين الشامية أيام عمر وعثمان رضي الله عنهما وما بعد ذلك أنطاكية وغيرها من المدن التي سهاها الرشيد «عواصم» فكان المسلمون يغزون ما وراءها كغزوهم اليوم ما وراء طرسوس. وكان فيما بين الاسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم كالحصون والمسالح التي يمر بها المسلمون اليوم...»^(٤٠)

ويقول ياقوت في «معجم البلدان»^(٤١):

«... والعواصم حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية وقصبتها أنطاكية. كان قد بناها قوم واعتصموا بها من الأعداء وأكثرها في الجبال، فسميت بذلك، وربما دخل في هذا ثغور المصيصة وطرسوس وتلك النواحي، وزعم بعضهم أن حلب ليست منها وبعضهم يزعم أنها منها... لم تزل قسرين

(٤٠) فتوح البلدان ص ١٧٠.

(٤١) معجم البلدان للإمام شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، الرومي، البغدادي، طبع دار صادر ودار بيروت سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦م). ج ٤ ص ١٦٥.

وَكُورَهَا مضمومة إلى حمص حتى كان زمان يزيد بن معاوية، فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج وذواتها جُنْدًا: فلما استُخلف الرشيد أفرد قنسرين بَكُورَهَا فصيرها جنداً وأفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون فسماها «العواصم» لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها، فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر. وجعل مدينة العواصم منبج وأسكنها عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس في سنة ١٧٣ (هـ) فبنى بها أبنية مشهورة، وذكرها المتنبّي في مدح سيف الدولة فقال:

لقد أوحشت أرض الشام طُراً سلبت ربوعها ثوب البهاء
تنفسُ، والعواصم منك عشر فتعرف طيب ذلك في الهواء

العواصم في أيامنا

هذا، وإن كلمة عاصمة في أيامنا لم تعد تعني المفهوم العسكري نفسه أو الحربي الإستراتيجي الذي كانت تعنيه في العصور الإسلامية المتقدمة. بل إن كلمة «العاصمة» اليوم يقصد بها المدينة الرئيسية (Capitale) في أي قطر من الأقطار، حيث تتركز فيها إقامة رئيس الدولة والحكومة القائمة بالأمر.

وإن دساتير جميع الأمم تضمنت في نصوصها مادة خاصة في تحديد اسم عاصمة البلاد والخصوصيات المتعلقة بها لجهة رئاسة الدولة وأركان الحكومة والسلطات المتعلقة بها.

العسكر

وهي في اللغة من كلمة «عسكرة» ومعناها الشدة، ويقولون عسكر الرجل: جماعة ماله ونعمه، وعسكر الليل: تراكم ظلامه. كما يقال أيضاً: العسكر مجتمع الجيش. ومن هذا المعنى الأخير أخذت السلطات العربية اسم المكان الذي خصص لإقامة القوات المسلحة.

وقد أنشأ العرب العديد من المدن التي عرفت باسم «العسكر» وقد أحصاها ياقوت في معجمه وهي :

عسكر الرملة - في فلسطين، جبرها الله وردها للعروبة والإسلام .
عسكر الزيتون - في فلسطين أيضاً .

عسكر سامرا - وهي المدينة التي أنشأها المعتصم بالله العباسي وجمع فيها جنده من الأتراك وإليها ينسب المهدي المنتظر أحد الأئمة عند الشيعة الاثنا عشرية .

عسكر القريتين - حصن بالقريتين .

عسكر مصر - وهي المحلة التي بناها صالح بن علي بن عبدالله الوالي العباسي أيام أبي جعفر المنصور .

عسكر مُكْرَم - وهي مدينة مشهورة من نواحي خوزستان، منسوبة إلى مُكْرَم بن معزء الحارث، أحد بني جعونة .

عسكر المهدي - بنيت في أيام المهدي ابن أبي جعفر المنصور، وتعرف اليوم باسم «الرصافة» في الجانب الشرقي من بغداد .

عسكر نيسابور - إحدى مدن خراسان المشهورة، وهي محلة مخصصة للعسكر في نيسابور .

